

المحاضرة الثانية عشر: المنهج الجدلي المادي عند كارل ماركس

تمثل الجدل في وجهه الأكثر تطورا في مذهب هيغل الفلسفي، لكن عيب جدله كان يمكن في خضوعه التام للمثالية وترتب على ذلك أن الجدل لم يكن مطبقا إلا على تطور الفكرة، على الوعي. لذا اقتضى الأمر عبقرية كعبقرية ماركس لإنقاذ النواة العقلانية في جدل هيغل. وكانت هذه النواة العقلانية تتمثل في التوكيد بأن كل ما في العالم يتبدل، ويتطور، وبأن أصل هذا التطور يكمن في التناقضات الباطنية. لكن لفصل هذا المذهب التقدمي في التطور عن قشرته المثالية، كان لا بدّ من إعادة النظر في جدل هيغل رأسا على عقب، على الرغم من أنّه كان نقطة البداية عند ماركس. يقول أنجلز "أعتقد أنني وماركس كنّا الوحيدين اللذين كان هدفهما انقاذ الديالكتيك من آثار المثالية الهيجلية، وادخاله في المفهوم المادي للطبيعة"¹ وتحويله إلى جدل مادي، واعطائه شكلا علميا حديثا والحال أن ذلك ما كان ممكنا إلا بالارتكاز إلى منجزات الممارسة الثورية والعلم.

وقد بلور ماركس المنهج الجدلي في كتابه " رأس المال" وفصله انجلز في كتابه "ضد دوهرنج"، وفي رأيهما أن الطبيعة تؤكد الديالكتيك، بمعنى أن الاعتماد المتبادل بين الأشياء في الطبيعة، سمّة ديالكتيكية، وليس ميتافيزيقية. يقول ماركس " إن منهجي الديالكتيكي ليس فقط مختلفا تماما عن منهج هيغل، وأنماه وعلى الضد منه، أن الفكر عند هيغل عندما يصبح ذاتا مستقلة، ويتخذ اسم العقل فإنه يخلق الواقع. أما أنا فعلى الضد من ذلك. إن الفكرة ليست سوى المادة، إنها المادة وقد انتقلت وتغيرت في الدماغ البشري"² إن الديالكتيك بعد أن كان واقفا على رأسه في نسق هيغل قد وقف على قدميه عند ماركس.

¹ مراد وهبة، قصة الديالكتيك، دار العالم الثالث، ط1، 1997، ص49.

² المرجع نفسه، ص50.

1/- المفهوم المادي الجدلي عن التطور:

ينظر إلى العالم باعتباره حركة وتبدل وتطور مستمر، أي أن الأشياء والظواهر في العالم لا تبقى ثابتة، التجربة اليومية، تطور العلم، والتطبيق الاجتماعي. وبالتالي، فإن التطور المستمر وانتقال الأشياء والظواهر من حالة إلى أخرى، وتحولها من بعض إلى بعض يمثل خاصية هامة للعالم المادي. من الضروري قبل كل شيء أن ندرس تبدلها وتطورها المستمرين. يقول لينين: "من أجل أن نتعرف على الشيء بصورة حقيقية، من الضروري أن نأخذه في تطور و"حركة ذات

1

إن دراسة اللوحة العامة لتطور العالم هي بالتأكيد إحدى أهم مهمات الديالكتيك المادي. كتب انجلز يقول: "إن الديالكتيك هو تعاليم عن القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة، والمجتمع الانساني والتفكير"² وتبدل الديالكتيك الماركسي ينظر إلى التطور باعتباره حركة من الأسفل إلى الأعلى، من البسيط إلى المركب، كعملية ثورية تتم بقفزات حيث تتم هذه الحركة ليس في دائرة مغلقة، وإنما على شكل حلزون، كل حلقة فيه أعمق، وأغنى وتختلف عن سابقتها.

2/- القوانين الأساسية للديالكتيك المادي:

1- قانون وحدة وصراع المتناقضات:

يكمن جوهر هذا القانون كون التناقضات ملازمة لكل شيء ولكل سيرورة، ولقد سمي لينين هذا القانون جوهر الديالكتيك ونواته³ إذ يكشف مصادر الحركة المستمرة وتطور العالم المادي، والأسباب الحقيقية لذلك. ومعرفة هذا القانون ذات أهمية عظيمة لفهم ديالكتيك تطور الطبيعة والمجتمع والفكر، وللعلم والنشاط العملي الثوري.

¹ - ق. إيفانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج1، ترجمة عبد الرزاق الرصافي، ط1، 1984، ص61.

² - المرجع نفسه، ص 61.

³ - المرجع نفسه، ص69.

إن العلة الأساسية لتطور الأشياء لا توجد خارجها وإنما تكمن في جوف هذه الأشياء، ولا يمكن أن نتصور أي شكل من أشكال الحركة بدون أصداده، فحتى الحركة الآلية البسيطة لا تتم إلا بوجود هذه الأضداد: فعل ورد فعل، جذب ودفع، قوة طرد مركزية وقوة جذب مركزية، بل إن كل ذرة تتألف من ضدين من نواة مشحونة شحنة موجبة وغلاف إلكتروني مشحون شحنة سالبة. بل هناك جوانب متناقضة ذاتيا داخل عملية المعرفة نفسها فالإنسان يستخدم مناهج متضادة ومرتبطة في دراسته للأشياء كالاستقراء والاستنباط والتحليل والتركيب¹.

وفي المجتمعات الطبقة القائمة على الصراع توجد طبقات مضادة: العبيد وملاك العبيد في مجتمع مالكي العبيد، الفلاح القن والاقطاعي في الاقطاعية، البروليتير والبرجوازي في الرأسمالية. لذا فإنّ التناقض والصراع بين المتناقضات هو بالضبط المصدر الأساسي لتطور المادة والوعي، كتب لينين يقول: " إنّ التطور هو صراع المتضادات"².

تنوع التناقضات:

توجد في العالم تناقضات كثيرة ومتنوعة، وإن ديالكتيك الماركسي أعم التناقضات*، كالتناقضات الداخلية والخارجية.

أ- **التناقضات الداخلية:** وهي تفاعل وصراع الجوانب المتضادة لشيء معين تعتبر من أهم التناقضات، باعتباره تناقض حاسم في التطور، فهي مصدر الحركة قبل أي شيء آخر. وبالتالي فإنّ الديالكتيك الماركسي يفهم الحركة على أنّها حركة ذاتية للمادة، كحركة داخلية تكمن دوافعها ومسبباتها في الأشياء والظواهر المتطورة نفسها³.

¹ إمام عبد الفتاح إمام، المنهج الجدلي عند هيجل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 2007، ص310.

² ق. ايقانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج1، مرجع سابق، ص82.

* تجدر الإشارة إلى جانب التناقضات الداخلية والخارجية، نجد أيضا التناقضات المتناحرة وغير المتناحرة. أنظر أكثر:

ق. ايقانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج1، ترجمة عبد الرزاق الرصافي، ط1، 1984، ص ص76-77.

³ ق. ايقانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج، مرجع سابق، ص ص73-74.

ب-التناقضات الخارجية: إن الديالكتيك الماركسي يشيّد بالدور الحاسم للتناقضات الداخلية، إلا أنّه لا ينكر أهمية التناقضات الخارجية في التطور، باعتبار تلك العلاقة المتناقضة لشيء معيّن مع الوسط المحيط به، ومع الأشياء في هذا الوسط. ومثلها التناقضات بين المجتمع والطبيعة التي يحصل فيها الإنسان على الخيرات المادية.

2 - قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغييرات نوعية:

التغير الذي يحدث في العالم هو انتقال من التغيرات الكميّة إلى تغييرات كيفية جذرية والعكس، فالنوعية هي خاصية باطنية، أي مرتبطة بالشيء بالذات، مجمع سماته الأساسية كلها تأتي بفضلها يكتسب الشيء استقرارا نسبيا ويتميز عن سائر الأشياء. أمّا الكميّة هي قابلية الأشياء والظواهر للقياس بواسطة اعداد تعبر عن الأبعاد والوتيرة والدرجة والحجم¹.

لكن كيف يتمّ تحول التغيرات الكمية إلى تغييرات نوعية؟

لقد لاحظ جميع الناس كيف يغلي الماء. في البدء يسخن الماء لا غير ثمّ تصعد الحرارة من 50 إلى 60 إلى 70 درجة لكن الماء مازال ماء، لكنّها لم تتغير إلى درجة تكفي لكي يفقد الماء نوعيته. وعندئذ ما أن تصعد حرارة الماء درجة واحدة أخرى، حتى يشرع الماء بالغلجان متحوّلا إلى بخار، إنّ حالة الماء النوعية تتغير. يبيّن لنا هذا المثال كيف تنقلب الكمية إلى نوعية في البدئ تحدث تغييرات تمهيدية لكن حين تتراكم هذه التغييرات في كمية كافية، تبدأ بالحدوث تغييرات نوعية مباغته وسريعة، هذا التحول يحمل اسم القفزة لهذا حدّد لينين القفزة بأنها اشبه بانعطاف حاسم من النوعية القديمة إلى الجديدة، بتغير مباغت في التطور².

كما نجد عملية التحول من التغيرات الكمية على كيفية في التطور الاجتماعي. فالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية الذي يتمّ عن طريق الثورة الاشتراكية له مقدمات كمية

¹ فاسيني بودوستنيك وأوفشي ياخوت، ألف باء المادية الجدلية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، ص50.

² المرجع نفسه، ص 54.

محددة- نمو القوى المنتجة في الرأسمالية، اشتداد الطابع الاجتماعي للإنتاج، وازدياد عدد البروليتاريا الثورية¹.

بهذا فإن تحول التغيرات الكمية إلى كيفية هو قانون عام لتطور العالم المادي، ولكي نكشف الطابع الشامل لهذا القانون سنبنى تأثيره في مختلف نواحي الواقع.

3- قانون نفي النفي:

لقد حافظا كل من ماركس وانجلز على مصطلح "النفي" لكن على خلاف هيجل*، إذ سراه بشكل مادي، وبرهنا بأنّ النفي يمثلّ عنصرا من عناصر تطور الواقع المادي، فكل الظاهرات الجديدة التي تظهر في العالم وذلك إما في الطبيعة وفي المجتمع بعد فترة من الزمن تشيخ وتترك مكانها لقوى وظاهرات جديدة، وإذا كانت في السابق جديدة، أي نافية فإنّها في الوقت الحاضر تصبح هرمة بدورها، وعرضة للنفي من قبل قوى أكثر حداثة منها. ذلك هو نفي النفي. لذا فسيرورة النفي دائمة، متواصلة إلى ما لانهاية.

إلا أن الديالكتيك الماركسي- كما أشار لينين- هو ليس النفي، المجرد، الفارغ، وإنما النفي كعنصر في رابطة، كعنصر في التطور يحافظ فيه على ما هو ايجابي²، فخلال سيرورة التطور تنفي كل درجة عليا وتزيح الدرجة السابقة، لكنّها ترفعها في الوقت نفسه إلى مستوى جديد وتصون كلّ المضمون الايجابي المكتسب أثناء تطورها. فالتطور الذي يتمّ بطريق نفي النفي يشكل عامل تقدم، وهذا يسري على ارتقاء الطبيعة كما على ارتقاء المجتمع البشري. ففي الطبيعة يتمثل الارتقاء في الانتقال من المادة اللاعضوية إلى درجة أعلى، إلى الحياة. وفي المجتمع يتمثل الارتقاء في الدرب الذي تمّ اجتيازه بدءا من نظام المشاعة البدائية ووصولاً إلى الاشتراكية، وكذلك الحال في ارتقاء العلم³.

¹ فاسيني بودوستنيك وأوفشي ياخوت، ألف باء المادية الجدلية مرجع سابق، ص 87.

* إن مصطلح النفي ادخل في الفلسفة من قبل "هيجل" غير أنه وضع فيه فكرة مثالية. ووفقا لما قال فإنّ أساس النفي يكمن في تطور الفكرة.

² ق. ايكانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج 1، مرجع سابق، ص 96.

³ فاسيني بودوستنيك وأوفشي ياخوت، ألف باء المادية الجدلية، مرجع سابق، ص 67.

وبالتالي، ما يميّز الفهم الماركسي للنفي هو الاعتراف بالتقبل، بالعلاقة بين الجديد والقديم في عملية التطور، باتخاذ موقف انتقادي تجاه تجربة البشرية في الماضي، ويشير أيضًا إلى ضرورة الاستفادة من هذه التجربة بشكل خلاق، وأن يحسب حساب الظروف المتبدلة والمهام الجديدة للنشاط الثوري.

إن الديالكتيك الماركسي هو الذي يعطي الفهم الصحيح الحقيقي لعملية التطور ثم إن تلك القوانين الأساسية تعطي لوحة عامة عن تطور العالم ومعرفته وإعادة بناءه. "قانون وحدة صراع المتناقضات يكشف مصادر التطور وقواه المحركة. وقانون تحول التغيرات الكمية إلى تغييرات كيفية يتحدث عن التبدل الثوري الذي يتم بقفزات وعن التحول المستمر للتغيرات الكمية اللازمة للأشياء إلى تغييرات جذرية كيفية. وقانون نفي النفي (نقيض النقيض) يميز الطابع الحلزوني الدائب للتطور"¹.

3- المفاهيم الأساسية للديالكتيك المادي:

إن ميدان الواقع المادي لا يمثل فقط ذلك النظام من القوانين، وإنما نجد مجموعة من المفاهيم الأساسية المحددة هي أيضا لمجرى تطور الجدل الماركسي، وتشكل أساسه. من هذه المفاهيم نجد:

1- الخاص والعام:

إن الخاص والعام يوجدان في وحدة ديالكتيكية في كل شيء. فمن جهة نجد أن الخاص يحتوي على العام، يقول لينين: "لا يوجد من غير تلك العلاقة التي تقوده نحو العام"². وبالأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين الخاص والعام ووجود العام في الخاص فإن المادية الديالكتيكية تعتبر بأن كل خاص هو بهذا الشكل أو ذاك عام. كما أنهما ليسا مترابطين فقد بل يتبدلان باستمرار أيضا، فالحدود ليست ثابتة. ففي مجرى التطور وفي ظل ظروف معينة يتحول الواحد منهما إلى الآخر، فالخاص يصبح عاما وبالعكس.

¹ فاسيني بودوستنيك وأوفشي ياخوت، ألف باء المادية الجدلية، مرجع سابق، ص 61.

² ق. ايقانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج 1، مرجع سابق، ص 107.

إن مراعاة ديالكتيك الخاص والعام لها أهمية بالغة في النشاط العلمي والتطبيقي، إذ تعطينا الامكانية للسير بعمق في كلّ تعقيدات عمليات الواقع الموضوعي المختلفة، والكشف عن قوانين تطوره واستخدامها بشكل صحيح في النشاط العملي.

2-المحتوى والشكل:

إن المادية الديالكتيكية تنطلق من وحدة المحتوى والشكل وعدم الانفصال أحدهما عن الآخر. فالشكل والمحتوى أمران ملازمان للشيء المعين، وكذلك لا يوجد شكل مجرد خالي من أي محتوى. إن الشكل هو دائما ذو محتوى. وإن المحتوى والشكل يلازمان جميع الظواهر الاجتماعية، فالقوى المنتجة (أدوات الانتاج والناس اللذين يستخدمون هذه الأدوات) تمثل محتوى أسلوب انتاج تاريخي معيّن وعلاقات الانتاج (الرابطة المتبادلة بين الناس في عملية الانتاج القائمة على أساس علاقاتهم بأدوات الانتاج) هي الشكل¹.

3-الماهية والظاهر:

الماهية هي التعبير عن العلاقة الباطنة للعالم الموضوعي، وهي تشكل أساس تعدّد الظاهرات، أما الظاهرة فهي الماهية وقد برزت إلى النور، الشكل الخارجي لتظاهرها². ففي المجتمع الرأسمالي كل الظاهرات التي تحدث في هذا النظام من بطالة، والاضطرابات، الاحتكارات، وخلف هذه الظاهرات تختفي ماهية الرأسمالية، نظام الاستغلال والاضطهاد.

4-العلة والمعلول:

يوجد في العالم الموضوعي تأثير متبادل بين الظواهر، تكون فيه بعضها سبب لولادة وظهور أخرى، وهذه بدورها تولد ثالثة وهكذا. فالاحتكاك مثلا يولد الحرارة، كما أنّ التأثير بين الظواهر يلاحظ في العمليات الاجتماعية أيضًا. فالحركة الوطنية الثورية الجبارة للشعوب المضطهدة تسبب انهيار نظام السيطرة الاستعمارية

¹ ق. ايقانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج1، مرجع سابق، ص110.

² فاسيني بودوستنيك وأوفشي ياخوت، ألف باء المادية الجدلية، مرجع سابق، ص 96.

5-الضرورة والصدفة:

إن الضرورة والصدفة مترابطتان دياكتيكيا فإن حادثا ما، هو نفسه، يكون ضرورة، ويكون صدفة، ضرورة في علاقة معينة، وصدفة في أخرى. فالصقيع هو صدفة بالنسبة لموت النبتة هو ضرورة نتيجة الظروف الجوية الناشئة في المنطقة التي سقط فيها. كما يمكن أن تتحوّلا من واحدة إلى أخرى، فالصدفة في ظروف ما، تصبح ضرورة في ظرف أخرى متبدلة وبالعكس. فمثلا في المجتمع البدائي كان تبادل البضائع يتمّ بشكل صدفة. ذلك أنّ كل مجموعة تستهلك اعتيادي، كل ما تنتجه. ويظهر وتطور الملكية الخاصة اتسع تبادل البضائع وفي الرأسمالية أصبح ضرورة موضوعية¹.

ولا يمكن أن توجد ضرورة وصدفة محضتين منعزلتين عن بعضهما. فالضرورة تظهر كاتجاه رئيسي، كميل للتطور، في هذه العملية أو تلك، ولكنه يشق طريقه خلال صدف كثيرة. إنّ الصدفة تكمل الضرورة وتمثّل شكل ظهورها، ووراء الصدف الكثيرة تكمن باستمرار ضرورة موضوعية قانونية.

4-أهمية الديالكتيك الماركسي:

إن الديالكتيك المادي الماركسي هو تعاليم عميقة من التطور والرابطة الشاملة في العالم، وانه إذ يعطي صورة عامة من العمليات المادية فإنه يمثّل اسلوبا علميا لمعرفة العالم، يعطي الإنسان امكانية فهم مختلف ظواهر الواقع غير أن الديالكتيك الماركسي ليس فقط اسلوبا للمعرفة، وإنما هو وسيلة لتغيير العالم ثوريا²، وله أهمية عظيمة في النشاط العملي للطبقة العامة وحزبها الماركسي.

أن الديالكتيك الماركسي هو في أساسه انتقادي ثوري، ولا يوجد بشيء غير قابل للتبدل، خالد، خلق ليبقى إلى الأبد على ما هو عليه، ولا يوجد ما هو خالد بنظر الديالكتيك الماركسي شيء ما عدا التقدم الذي لا نهاية له، والحركة الخالدة المتواصلة إلى الأمام. لذا

¹ ق. ايقانا سييف، أسس الفلسفة الماركسية، ج1، مرجع سابق، ص124.

² المرجع نفسه، ص68.

فدعوى التغيير هي فحوى الجدل المادي، " ذلك أن الجدل المادي ثوري فهو لا يعترف بشيء غير قابل للتبدل ولا يوجد ما هو خالد... عدا التقدم الذي لا نهاية له، إن الفلسفة الجدلية تحطم جميع التصورات عن الحقيقة المطلقة النهائية"¹

إن الديالكتيك الماركسي لا يهادن الميتافيزيقي والرجعية. وكل محاولة تهدف إلى الدفاع عن النظام الذي ولى زمانه، وإلى تخليد الملكية الخاصة، والاستغلال، والحروب، والاضطهاد القومي، ويشير إلى حتمية فنائها وتجاوزها من قبل نظام جديد، اشتراكي. ولذا فإن الديالكتيك يولد لدى البرجوازية ومفكريها الحقد والرعب .

إن الطابع الثوري الانتقادي للديالكتيك يتطابق كلياً مع الروح الثورية للطبقة العاملة، وحزبها الماركسي، لذا جاءت الماركسية لتعبر عن مصالح الطبقة الأكثر تقدماً أي البروليتاريا كل الشعب العامل، ولم يكن ماركس وانجلز مؤسسي فلسفة جديدة فحسب، بل كانا كذلك قائدين لحركة البروليتاريا الثورية النامي أيضاً، وقد أوضحنا أن الطريق الوحيد للتحرر هو طريق الثورة الاشتراكية². إن الديالكتيك الماركسي ينبذ كل ما هو متأخر، وكل ما فات أوانه في الواقع، ولا يتحمل النسخ في التطبيق، والركود والجمود في التفكير النظري. إنه يتطلب إلى أمام وأن نستند إلى القوى الاجتماعية التقدمية. وكذلك يسلك حزبه عندما ينظم نضال الشعب السوفيياتي من أجل الشيوعية، فإنه يرفض بحزم وشجاعة كل ما يعيق حركتنا إلى أمام ويدعم، بكل ما يملك من قوة، كل تقدمي وجديد يولد يومياً في واقعنا الاشتراكي.

¹ قيس هادي أحمد، الإنسان المعاصر عند هيرت ماركيز، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط1، 1980، ص138.

² سيف. ف. ج، أصول الفلسفة الماركسية، ترجمة عبد الجواد، دار الثقافة الحديثة، بيروت، 1975، ص37.

